الفكاهة في شعر عبد الحميد الديب

عبد الحميد الديب (١٨٩٨-١٩٤٣م) الذي لقب حياً وميتاً بشاعر البؤس هو واحد من أشهر الشعراء الصعاليك في القرن العشرين ، إذا أخذنا الصعلكة بمفهومها الحديث وهو : يعني التشرد وعدم الاستقرار النفسي والاجتماعي ، وضنك العيش ، والتصادم المستمر مع الحياة والأحياء .

أما المفهوم القديم للصعلكة الذي يعني قطع الطريق واغتيال ثروات الأغنياء لتوزيعها على المحتاجين كما كان يفعل الشعراء الصعاليك الأقدمون مثل عروة وتأبط شراً وغيرهم فلم يعد لها وجود .

على أن صعلكة عبد الحميد الديب وتشرده وحياته النكدة التي عاشها لا تعود إلى سبب واحد ، بل إلى سببين ، أولهما تلك النشأة الاجتماعية الخشنة التي جُوبه بها في طفولته ، فقد كان أبوه جزاراً قروياً فقيراً يعول أسرة كبيرة ، فلم يظفر شاعرنا بشيء من الاهتمام ولا ذاق طعم النعيم الذي كان يراه في حياة أثرياء قريته (كمشيش بالمنوفية) فهذا سبب خارج عن إرادته ، لأنه نشأ مرغماً في هذه الأسرة الفقيرة التي لابد له في اختيارها ، وإنما هي قدره الذي شاء له الله تعالى أن ينشأ فيه.

أما السبب الثاني لصعلكته فهو متعلق به هو ، فقد كان أبوه على الرغم من ضيق يده ، حريصاً على تعليم ابنه فلما أتم صاحبنا حفظ القرآن وتجويده في سن مبكرة أرسله – على عادة أهل الريف في ذلك الزمان – إلى المعهد الديني بالإسكندرية

حيث نال منه شهادته المتوسطة ثم أرسله أبوه إلى القاهرة بعد ذلك عام ١٩٢٠م ليستأنف تعليمه العالي في الأزهر، وهنا بدأ انحراف عبد الحميد الديب عن الطريق السويّ الذي سلكه نظراؤه من الذين سارت بهم مواكب الحياة سيرتها التقليدية فأتموا تعليمهم والتحقوا بوظائف حكومية كفلت لهم حياة كريمة.

ويبدو أن لنفسية الديب المتمردة، وشخصيته الثائرة، أثراً في تغيير مسار حياته، فقد قضى شطراً من عمره في الأزهر ثم يمم شطر دار العلوم التي كانت آنذاك قبلة الأدباء ومحط رحال الشعراء والمبدعين، غير أنه أكبّ على كتب الأدب والتراث في دار الكتب يلتهمها التهاماً، وأهمل دراسته، حتى التقى ذات يوم بالمطرب الشهير سيد درويش الذي أعجب بعبقرية صاحبنا فأخذه ليعيش معه في قصره الفخم ويشاطره حياته المترفة إلى أقصى حدود الترف.

وعاش صاحبنا مع سيد درويش لاهياً عن كل شيء إلا الفن والحياة الصاخبة، فضيّع دراسته، ومستقبله. ولم يطل به العهد بالنعيم فقد مات سيد درويش فجأة وهو في عنفوان الشباب عام ١٩٢٣م وطُرد صاحبنا من القصر الفخم إلى الشارع فاستأجر لنفسه غرفة حقيرة في حي الحسين الشعبي بالقاهرة وبدأت حياته مع التسكع والكدية والصعلكة على نحو استمر حتى وفاته عام ١٩٤٣م.

وقد يبدو التماس جوانب للفكاهة في حياة كئيبة كهذه الحياة ضرباً من المستحيل، لكنّ ذلك في الحقيقة ليس مستحيلاً إذا استعان الباحث في شعر الديب بشيء من الصبر والأناة، فمثل هذا الشاعر البائس المتمرد لا تخلو روحه من الدعابة والسخرية، بل لعل السخرية من لوازم التمرد والتصعلك وهذا ما نلمسه في شعره

حين يصور لنا حياته البائسة في غرفته تلك الحقيرة التي عاش فيها والتي كانت تشبه جحراً بل كان يسميها (جحر الديب) وفيها يقول :

أفي غرفتي يا رب أم أنا في لحد ؟
لقد كنت أرجو غرفة فأصبتها
فأهدأ أنفاسي يكاد يهُدها
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها
تساكنني فيها الأفاعي جـــريئة ألا شدّ ما ألقى من الزمن الوغد
بناءً قديم العهد أضيق من لحدِّي
وأيسر لمس في بنايتها يُردي
فأرجله أمضى من الصارم الهندي
وفي جوها الأمراض تفتك أو تعــدي

ثم يصف أثاث هذه الغرفة وصفاً مضحكاً ، فهذا الأثاث ليس في حقيقته إلا شاعرنا نفسه !!

فهو لا يملك إلا معطفاً يفترشه صيفاً ويتغطى به شتاءً ، ويتخذ لنفسه وسائد من أوراق الصحف يغطي بها حجراً صلداً حتى يلين قليلاً ليصلح وسادة وهو في حياته هذه يشبه المهاتما غاندي الذي عزف عن متاع الدنيا الزائل وعاش زاهداً يقول الديب :

تراني بها كل الأثاث ، فمعطفي
وأما وساداتي بها فجرائد

تعلمت فيها صبر أيــوب في الضنى فراش لنومي أو وقاء من البرد

تُجدَّد إذ تبلى على حجر صلد

وذقت هزال الجوع أكثر من غانــدي

وعلى الرغم من هذه الحالة المزرية التي يقدم لنا فيها الشاعر صورة غرفته القذرة فإنه يحكي لنا عن تلك المعارك الضارية التي تشتعل أول كل شهر بينه وبين صاحب البيت بسبب أجرة البيت التي كانت ثمانين قرشاً هي بالنسبة لشاعرنا نكبة النكبات وأزمة الأزمات يقول الديب :

ثمانون قرشاً أهلكتني كأنها

طويت لها الدنيا سؤالاً وكُدية

لُعنتَ كِراءَ البيت كم ذا أهنتني

لأجلك إما أن أبيع كرامتي

ففي كل شهر لي عواء بموقف

وطول ليالي الشهر يهتاج مضجعي

يطالبني في غلظة فأجيبه

ألا سكن ملكي ولو بجهنـــــم

ثمانون ذنباً في سجل عذابي

فما ظفرت نفسي برد جواب

وأذللت كبري بين كل رحاب

وإما أفديها ببيع ثيابي

يباعد عني أسرتي وصحابي

مخافة رب البيت يغلق بابي

إجابة من يرجو يدا ويحابي

وأكفي من الأيام شر حسابـــي

ويصور لنا عبد الحميد الديب كيف كان صاحب البيت يهينه إذا تأخر في دفع كراء الغرفة ، ويعيره بفقره وبأن غرفته خالية من أي أثاثات يمكن الحجر عليها إذا ما شكاه صاحب الدار إلى الشرطة . فلا شيء يملكه الشاعر يمكن احتجازه رهناً مقابل الإيجار الضائع . وهذه المعايرة تتكرر أول كل شهر وشاعرنا لا يقف ساكناً ذليلاً ، وإنما يرد الكيل لصاحب الدار فيعيره بأن بيته حقير لا فرق بينه وبين القبر. وإذا كان في جيبه مال تعمد أن يضع يده في جيبه فيضرب بعضه ببعض فما أن يسمع صاحب الدار رنين النقود حتى تنقلب حاله ، ويخف من غلوائه ويتودد إلى شاعرنا في لطف وحنو فيذكِّره بحب اليهود للمال وتكالبهم عليه يقول الديب :

صحوت على قصف الرياح وصوته

يطالبني بالأجر في غيظ دائن

وقال يداري ظلمه : أي ضامن

أراك بها كل الأثاث ولا أرى

فقلت له : هذي جدودي كما ترى

وقلت معاذ الدين ما كنت مـــرة

وما أحدث الطرق الخليع من الجرس

تصيده المحتال بالثمن البخس

لسكني تعرت عن سرير وعن كرسي؟

سوى قلم ثاو على الأرض أو طرس

فما سكني في البيت بل أنا في رمس

غريماً ولا أذللت يومي ولا أمســـي

ويغوص الديب في النفس الإنسانية القذرة التي أعماها حب المال فسلبها الحس المرهف والإنسانية الشاعرة ، فإذا هي أما المال تنقلب من حال الذئب الضاري إلى حال الحمل الوديع :

وأخضع فقري كبره وثراءه

إذا كانت السكنى بأجر مذلة

فإني أرى فيها الطعام ، ولا أرى

وإن لم أجد فيها الطعام ميســـراً

وأي غنًى للمرء غير غنى النفس

فما أرحب المجان في غرف الحبس

غريماً ، يلاقيني بعارضة النحس
فإني رخي البال ...أطعم من حســي

وتأبى أقدار الحياة إلا من السخرية من شاعرنا فتسوق إلى غرفته تلك المتهالكة لصّاً يسرقها ، فلا يجد إلا لحافاً ممزقاً هو كل ما يملك شاعرنا من أسباب النعيم ، فيبكي شاعرنا لحافه الوحيد فيقول ساخراً أنه لا يحزن على فقد اللحاف بقدر حزنه على هلهلة سمعته فاللحاف في حال لا تسر عدواً ولا حبيباً، فهو يخشى الفضيحة إذا قيل : هذا لحاف إنسان !! ، ويعتب صاحبنا على اللص الذي يعتبره أخاً في المحنة ، وصديق شدة كان حرياً به – والحال كذلك – أن يرأف به ويترك له لحافه يقول الديب :

لحافي ،وهل غير الهباء لحافي ؟
أطاف به لص فقير كعيشتي
ولم أخش من ذا الرزء إلا فضيحتي
فليتك يا لصي الجريء وجدتني
ويا ليتني ما كنت صيدك إنما
ويا ليتني دون اللحاف ضحيــــة

بقية نسج دارس ونداف
فيما بؤسها من هجرة ومطاف

بأني قد مُلِّكْتُ شر لحاف

غنياً وسعدي في الحياة موافي

سرقت لحافي جاهداً وشغافي

فإني صديق في الحياة مـــــوافي

ومن ألطف نماذج الفكاهة في شعر عبد الحميد الديب ، تلك المقطوعات التي هجا فيها بعض أصدقائه هجاءً مقذعاً استلهم فيه قول جرير : (إذا هجوتم فأضحكوا) ، فها هو ذا يصور لنا صديقه اللدود الشاعر الصحفي كامل الشناوي ببدانته المعروفة وهو يجلس جلسة صفاء وبجانبه غادة حسناء يحاول تقبيلها فتنفر منه لأنها أكرهت على مجالسته طمعاً في ماله أو في كأس تنالها في صحبته فيقول الديب واصفاً كامل الشناوي :

يصول على زجاج عبقري

وبين يديه واحدة العذارى

تغمغم إذ يقبلها استيـــــــاءً

يكاد ببطنه الكبرى يلالي

شرى يدها بكأس أو بمال

لأن الفيل يعبث بالغـــــزال

ويشجر خلاف بين شاعرنا وبين شيخ معمم أمام (بار اللواء) ينتهي بمعركة حامية بينهما يشتبكان فيها بالأيدي ثم تتمخض هذه المعركة عن قصيدة يهجو فيها شاعرنا ذلك الشيخ ويتخذ من العمة (= العمامة) التي يرتديها الشيوخ وسيلة للغمز في ذمة صاحبه فهو يتهمه بأنه فاسد الذمة ، يتخذ هذه العمامة مظهراً من مظاهر النفاق والنصب على الأبرياء بالرياء فهو يتكسب منها بالغش والزور وقد تبدلت بها حاله من الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش :

عمة تحتها ضلال ولؤم

نسجت من سفاهة وفسوق

أطعمت ربها زجاجاً حنيـــــذا

وهي عش الخنا وبيت الداء

وعلى الخسة انطوت والرياء

وسقته " الكونياك " بعد المـــاء

ويدافع صديقاه الشاعران كامل الشناوي وعلى محمود طه عن ذلك الشيخ بقصيدة يشتركان في تأليفها وينشرانها فيرد الديب عليهما ويمعق في وصف ذلك الشيخ وصفاً تهكمياً بليغاً فيقول :

خليليَّ لم أظلم وإن بت ظافراً

ألم تريا ذا الشيخ في طول نخلة؟

ألا لا تلوماني على صفع وجهه

فقِدمًا رأيناه وللعين أختهـــــا

وقد تضعف الأضغان من كان قادراً

عريض القفا فينان كالفرع ناضراً

فذلك وجهٌ يقبل الصفع صاغراً

فأمسى مكان العين بالضرب شاغـراً

على أن شاعرنا إذا هجا لم يكن في جميع الأحوال مضحكاً بل كان هجاؤه يصل أحياناً إلى حد من الغلظة كبير، فقد حدث أن زار أديباً كان وزيراً معروفاً في الأربعينيات، وكان مشهوراً بعطفه على الأدباء والشعراء، فلم يتمكن من مقابلته بسبب صاحب له غليظ القلب ساءه أن يدخل رجل زريّ الهيئة مثل الديب على سيده الوزير فاشتد ذلك على الديب فقال يهجو الوزير وخادمه في شعر لخفة الظل فيه :

قصدت إلى بابك الموصد

غلام يمثل حظي لديك

كأني حين طلبت الندى

لقد عشت يا رب حتى رأيـ

فخذني إليك وأنت الكريـ

ولست أرى البؤس عـــاراً إذا

فطوردتُ بالخادم الأسود

وقلبك في البيت والمعبد

إليك طلبت يد المعتدي

ـت من الناس أقسى من الجامد

ـم فقد ضقت بالزمن الأنكد

رأيت إبائي به مُسعـــــــدي

ومن المواقف الفكهة الطريفة في حياة شاعرنا ذلك الموقف الذي صار فيه شاعرنا موضع سخرية ماجنة من صديقه الفنان سيد العقاد الذي وعده بسهرة ممتعة فسار معه في الطريق وفجأة تعلق العقاد بالترام بجواره فانطلق به ، وترك شاعرنا مذهولاً فتلقفه صديقان له ، فحكى لهما ما صنع به سيد العقاد فأخذاه ليطعماه ويسقياه ، فلما وصلا إلى حجرة أحدهما ادعي الإفلاس وجمع له زجاجات خمر فارغة ليرهنها عند (كركور) وهو صاحب خمارة كان معروفاً لهم ، ويشتري بالرهن طعاماً وشراباً ، ودسّ صديقه بين تلك الزجاجات زجاجة زيت خروع فارغة وقد اكتشف (كركور) الخدعة ومع ذلك فقد أعطى الديب ما أراد من مال فقال شاعرنا يذكر هذا الموقف :

وبعنا زجاجات الطِّلا بعد شربها

فيوماً شربناها بعين وفضة

وشِمنا من " العقاد " أنذل باخلٍ

جزى الله " كركوراً " معيناً فإنه

وبدل ماء الخلد حزني بشاشـــة

لنظفر من أشانها بكؤوس

ويوماً شربناها ببيع نفوس

يضن لدى البلوى بنفل فلوس

أضاء ببشر الخمر ليل عبوسي

ففارقني كربي وشدة بـــــوسي

وهكذا عاش الديب بائساً ، ومات بائساً ، ولم يرحم أصدقاؤه هذا البؤس بل كانوا يتخذونه مادة للسخرية ، ووسيلة للاستهزاء ، وكان شاعرنا يبادلهم احتقاراً باحتقار ويرد على بذاءاتهم ببذاءات أشد لا نستطيع ذكر نماذج لها في هذا المقال ، .